

(الأسرار البلاغية في إبدال حروف المعاني بغيرها في المتشابه اللفظي "دراسة مقارنة بين الكشاف وملاك التأويل")

فاطمه بسحاق^{1*} ، سيد رضا سليمان زاده نجفي² ، محمد رضا ستوده نيا³

1. جامعة أصفهان ، كلية اللغات الأجنبية- قسم اللغة العربية و آدابها (إيران).

f.boshagh@yahoo.com

2. جامعة أصفهان ، كلية اللغات الأجنبية- قسم اللغة العربية و آدابها- الكاتب المسؤول ، (إيران)

rezanajafi84@yahoo.com .(

3. جامعة أصفهان ، كلية الالهييات و معارف اهل البيت- قسم علوم القرآن و الحديث (إيران)

m.sotudeh@ltr.ui.ac.ir

الإرسال: 2019/08/27م القبول: 2020/07/25 النشر: 2020/12/10

الملخص:

إنَّ حروف المعاني تمثّل الروابط الدقيقة في نظم الكلام البليغ ، ولها دور فاعل في دلالة الكلام وربط اجزائه ووضوح معناه. وفي القرآن الكريم آيات متشابهات تختلف فيها الحروف فتد في موطن بحرف وفي موطن آخر بحرف مختلف. ولا بدّ أن نتيقن أنّ لاختلاف الحروف في الآيات المتشابهة ، أسراراً

بلاغيةً و دلالات معنوية ؛ لذا قصد هذا البحث بلاغة استعمال الحروف المختلفة في أماكن متشابهة ، فإنّ كلّ حرف في كتاب الله تعالى مقصود وجوده ، وله غاية سيق لأجلها. وبما أنّ للزمخشري في "الكشاف" و"ابن الزبير" في "ملاك التأويل" آراءً عن أدق الفروق

* المؤلف المرسل: فاطمه بسحاق ، f.boshagh@yahoo.com

التعبيرية بين هذه الحروف جعلنا هذه الدراسة المتواضعة لموازنة جهود هذين العالمين عند قضية "الإبدال بين حروف المعاني" في حالة تشابه الآيتين أو الآيات في سياق تركيبى ومعنوي. وذلك على أساس المنهج الوصفي المقارن والتحليل النقدي.

ما توصلنا إليه البحث أن لحروف المعاني دوراً في توجيه المعنى وتخصيصه؛ فكل حرف له وظيفة تميّزه عن غيره، بحيث لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يحلّ واحد مكان الآخر بحيث يؤدي نفس المعنى ولكل حرف ميزاته وخصائصه. لقد برزت بوضوح صورة إحساس الزمخشري الدقيق بحروف المعاني وزمام ما فيها من دقيق المعاني وخفي الإشارات وعنايته بدراسة هذا النوع الهام من مفردات اللغة الشريفة، تلك اللغة التي كانت من أجمل ما يميزها دقة مواءمتها بين اللفظ والمعنى. أظهر البحث أن التحليل اللغوي لاختلاف الحروف في المتشابه اللفظي حسبما جاء في كتاب ملاك التأويل يعتمد أساساً على علم المناسبة أو ما يُعرف في الدرس اللساني الحديث بمبدأ الاتساق والانسجام. ويستطيع الناظر في كتاب الله أن يلتبس السرّ الإلهي في كل حرف من حروفه ويستجلي روعة البيان فيه؛ فاستعمال القرآن للحروف استعمال أمثل لامثيل له في كلام البشر مهما أوتوا من الفصاحة والبلاغة وسموّ البيان.

الكلمات المفتاحية: المتشابه اللفظي، الزمخشري، الكشاف، ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل، إبدال حروف المعاني.

Abstract: Certainly letters have a great importance and influence in the structure of vocabularies and sentences. And in the Holy Qur'an, there are some similar verses which differ just in the letters of the meanings. Thus there is a letter in one verse, and another letter is used in the same verse. Surely in these variance of the letters, there are some rhetorical secrets and spiritual implications. This research wants to explain the rhetoric usage of different letters in the similar verbal verses. Because there is a special meaning for every word in the god book. Regarding to precise discussions of Zemakhshari in 'Kashaf' and 'Ibn al-Zubair' in 'Melak al-Tawil' about these interpretive differences, this brief essay will compare the efforts of these two

scholars about the issue of "the substitution between letters of meaning" in the same literal verses.

It has been found that the letters of meaning play an important role in justification and allocation of the meaning, and each letter has its own usage and and you can't replace any other letter. Zamakhshari's precision and analysis about these letters and the exact meanings and subtleties of these types of words can be clearly seen. It was also found that the author of "Melak al-tavil" is based on the science of relativity, or the science known as method and solidarity in modern linguistics, and it deals with the lexical analysis of the difference of letters in similar verses. So the usage of letters in the Holy Quran is unique and we haven't seen in the human word which is a reason for the rhetoric and miracle of the Holy Quran.

Key words: Similar verses , Zemakhshari, Kashaf, Ibn al-Zubair, Melak al-Tawil, The substitution between letters of meaning.

المقدمة:

إنّ الفقيه في أسرار العربية يدرك إلى أيّ مدى كانت دقة الأسلوب القرآني في التعامل مع مكونات الجملة العربية من أسماء وأفعال وحروف ، فكّل يؤدّي وظيفته الأسلوبية والمعنوية . فالحرف في العربية ذو قيمة لاتقلّ عن الاسم والفعل . اختيار الحروف في القرآن الكريم لم يكن إعتباطياً ولاعبثاً ؛ إنّما لحكمة مقصودة وغاية واضحة ، كما تقول عائشة بنت الشاطيء (ت:1419هـ) : «وما من حرف في القرآن الكريم تأوّلوه زائدا ، أو قدّروه محذوفاً ، أو فسّروه بحرف آخر ؛ ليتحدّى بسرّه البياني كلّ محاولة لتأويله على غير الوجه الذي جاء به في البيان المعجز»¹ . أما المراد بحروف المعاني فهي تلك الأدوات التي تجري في كلام العرب لإعطاء مختلف الدلالات ؛ فهناك حروف للعطف ، وحروف للنفي ، وأخرى للجر وأخرى للشرط وأخرى للاستفهام أو غير ذلك .

في بحثنا هذا سيكون الحديث عن "الأسرار البلاغية لإبدال حروف المعاني في المتشابه اللفظي" مقارنة بين آراء الزمخشري في "الكشاف" وابن الزبير الغرناطي في "ملاك

التأويل". فأيات كثيرة من آيات المتشابه اللفظي لافرق بينها إلا في حروف المعاني، ويظهر من اختلاف هذه الحروف في الاستعمال القرآني كثير من خصائص الأساليب البلاغية، ويدرك ما في هذه اللغة الشريفة من الروعة والبيان وجمال العبارة والأسلوب. إذا نظرنا إلى جهد الزمخشري والغرناطي في هذا الموضوع وجدنا لهم وقفات و تأملات في غاية الأهمية؛ حيث تظهر أسرار الإعجاز القرآني في أعلى صورها.

يتبع البحث الإجابة عن الأسئلة التالية:

1- ما هي خصائص الأساليب البلاغية من اختلاف حروف المعاني في المتشابه اللفظي من الآيات؟

2- ما هو منهج الزمخشري ومنهج ابن الزبير الغرناطي في الكشف عن أسرار حروف المعاني في المتشابه اللفظي؟

3- ما هي أوجه التوافق والاختلاف بين كل من الزمخشري كإمام من أئمة النحو والبلاغة والغرناطي كعالم من الأعلام المتخصصين في المتشابه اللفظي؟

إن طبيعة هذه الدراسة تقتضي عدة مناهج مجتمعة لتحقيق مقصود البحث فهي تعتمد على المنهج الوصفي والاستقرائي الإحصائي والمنهج المقارن، القائم على مقارنة كلام هذين بكلام غيرهم من المفسرين وعلماء المتشابه اللفظي، والتحليل النقدي الذي يتمثل في دراسة كل رأي وأدلته ونقاش ما فيها من قوة وضعف وصواب وخطأ.

بما أنّ للزمخشري -كالمفسر بلاغي كبير - وابن الزبير -كمختصص في المتشابه اللفظي- آراءً عن أدق الفروق التعبيرية بين هذه الحروف وآرائهما هذه تفتح لنا مجالات رحبة من جوانب العبرة لم يكن في غير هذا الموضوع على هذا القدر، ويمتاز كتابهما بإيراد الأمثلة الكثيرة للتدليل على قيمة اللفظ القرآني أو التركيب القرآني في سياقه الخاص، مبيّنان لأسرار لطيفة في استعمال حروف المعاني، فهذه الدراسة تنوي إظهار تأملات ووقفات الزمخشري وابن الزبير في هذه الموارد.

أولاً: التعريف بالمتشابه اللفظي:

هو عبارة عن الآيات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة في غالبها، لكن وقع في بعضها زيادة أو حذف، أو تقديم أو تأخير أو نحو ذلك، وقد وضّحه الزركشي (ت 794هـ) بقوله: «هو إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء

، وحكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك². وقد أنكر بعض الدارسين على الزركشي عدم عدة الآيات والتعبيرات المتشابهة في السورة الواحدة من المتشابه اللفظي؛ إذ المتشابه اللفظي قدير في سور شتى، وقدير في سورة واحدة³ وأمثله في القرآن الكريم تؤيد ذلك وتعضده.

فآيات المتشابه اللفظي هو «أن تجيء الآيات القرآنية متكررة في القصة الواحدة من قصص القرآن، أو موضوعاته، في ألفاظ متشابهة وصور متعددة وفواصل شتى وأساليب متنوّعة، تقديمياً وتأخيراً، زيادةً ونقصاً، ذكراً وحذفاً، تعريفاً وتنكيراً، إفراداً وجمعاً، إيجازاً وإطناباً وإبدال حرف بحرف آخر، أو كلمة بكلمة أخرى، ونحو ذلك مع اتحاد المعنى لغرض بلاغي أو لمعنى دقيق يراد تقريره، لا يدركه إلا جهابذة العلماء وأساطين البيان⁴.

إنّ في هذا العلم حثاً على تدبّر القرآن، ومزيد النظر والتأمل في دقائق معانيه وبديع أسراه ولطائفه؛ حيث يفتح أمام المشتغل به أبواباً جديدة للنظر في القرآن وأساليبه - قياساً على ما يجده في كتب هذا العلم من محاولات في فهم أسرار القرآن. ويستطيع الناظر في كتاب الله أن يلتبس السرّ الإلهي في كل حرف من حروفه ويستجلي روعة البيان فيه؛ فاستعمال القرآن للحرف العربي استعمال أمثل لامثيل له في كلام البشر مهما أوتوا من الفصاحة والبلاغة وسموّ البيان.

ثانياً: من الأسرار البلاغية لإبدال حروف المعاني في المتشابه اللفظي:

نرى في القرآن الكريم آيات متشابهات تختلف فيها الحروف فترد في موطن بحرف وفي موطن آخر بحرف مختلف. ولا بدّ أن نتيقن أنّ لاختلاف الحروف في هذه الآيات، أسراراً بلاغية ودلالات معنوية. وقديما عاب الزمخشري على من يتجاهلون الفروق الدقيقة بين حروف المعاني، وما يترتب عليها من اختلافات دلالات التراكيب، خاصة إذا تعلّق الأمر بكتاب الله عزّوجلّ⁵.

قد كان لحروف العطف النصيب الأوفر، فأغلب الآيات المتشابهة التي تحدثوا عنها يكون الاختلاف فيها في حروف العطف، يأتي بعد ذلك حروف الجر، ثم تأتي حروف أخرى نذكرها في موقعها. والآيات التي سأحدث عنها تمثّل كل ما جاء في كتاب الله تعالى من المتشابه في هذا الموضوع، وسأحدث أولاً عن الاختلاف في حروف العطف.

1- بلاغة إبدال حروف العطف

وذلك بورود آيات متشابهات قد اختلفت في استعمالات حروف العطف ، ففي موطن يؤثر القرآن استعمال حرف العطف الواو ، ويستعمل في موطن آخر حرف العطف الفاء ، أو غيره. فما سرّ هذا التبدّل في استعمال حروف العطف؟ وفيما يلي نماذج لها ورد في المتشابه من اختلاف بين حروف العطف:

1-1- الواو و الفاء

فرّق السكاكي (ت626هـ) ما بين الواو وسائر حروف العطف في أغراض النظم ودواعيه ، إذ إنّ "الواو" بدالاتها على الجمع المطلق تأتي لتفصيل المسند إليه ، في حين يكون الغرض من باقي حروف العطف هو تفصيل المسند. يقول العصام (ت943هـ) مقيداً من كلام السكاكي ، في تحديد فروق المعاني بين حروف العطف: «ففي نحو "جاءني زيدٌ فعمروٌ" ، يكون الغرض إثبات محيء عمرو بعد زيد بلامهلة ؛ كأنه معلوم أنّ الجائي زيدٌ وعمروٌ ، والجهل تتعلق بالترتيب والتعقيب ، فيكون العطف لإفادة تفصيل المسند لاغير.»⁷ فالواو لمطلق الجمع ، والفاء تفيد الترتيب والتعقيب. من الفروق في استعمال حرفي "الواو" و "الفاء" بين الآيات المتشابهة ما جاء في:

النص الأول: في قصة هود (ع) ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ** ﴾ [هود:58]

النص الثاني: في قصة صالح (ع) ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ** ﴾ [هود:66]

النص الثالث: في قصة لوط (ع) ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مُنْضُودٍ** ﴾ [هود:82]

النص الرابع: في قصة شعيب (ع) ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾ [هود:94]

موطن الشاهد: "فلما جاء" و "ولمّا جاء". الفرق: "الفاء" و "الواو".

فقد ورد "ولمّا" بالواو في قصتي هود و شعيب عليهما السلام ، في حين ورد "فلمّا" بالفاء في قصتي صالح و لوط عليهما السلام. فما سبب هذا التخصيص ؟

رأى الزمخشري: يرى أن الفاء هنا للسبب بسبب تقدم ذكر الوعد. فيقول «فإن قلت: ما بال ساقتي قصة عاد وقصة مدين جاءتا بالواو ، و الساقتان الوسطيان بالفاء ؟ قلت: قد وقعت الوسطيان بعد ذكر الوعد ، وذلك قوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود:81] ﴿ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرٌ مَّكْذُوبٌ﴾ [هود:65] فجاء بالفاء الذي هو للتسبب ، كما تقول: وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت. وأما الأخریان فلم تقعا بتلك المثابة. وإنما وقعتا مبتدأتين ، فكان حقهما أن تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة.»⁸

رأى الغرناطي: بين الغرناطي سبب التخصيص فقال: «"فلمّا" في قصة صالح مناسب لما قبله من قوله ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرٌ مَّكْذُوبٌ﴾ [هود:65] فتناسبت الفاء العاطفة مع الكلمتين اللتين دخلت عليهما الفاء وهما "فَعَقَرُوهَا فقال". وأما قوله "فلمّا" في قصة لوط فقد سبقها قوله ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود:81] والمعنى يستدعي أن يكون على تقدير " فلما أصبح " تحقيقاً لصدق الوعيد. وبأما قوله "ولمّا" في قصة هود فهو مناسب لما قبله من قوله: ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود:57] فتناسبت هذه الواو العاطفة مع الكلمتين اللتين دخلت عليهما الواو وهما "ويستخلف ، ولا تضرّونه". وأما قوله: "ولمّا" في قصة شعيب فهو مناسب لما قبله من قوله: ﴿ وَبَا قَوْمٍ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود:93] فتناسبت هذه الواو العاطفة مع الكلمتين " يا قوم ، وارتقبوا".⁹

الموازنة والترحيح:

يعلل الزمخشري سبب العطف بالواو في قصة هود وشعيب بأن العذاب الذي حذرهم منه بينهم قد تآخّر عن وقت الوعيد ، فلم يتقدم الآية تخويف يدل على قرب ما حذرهم منه ، وهذا يقتضى الواو دون الفاء. فليس المراد اتصال الثاني بالأول وإنما الجمع بين الخبرين ، فقبل قصة هود عليه السلام قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود:57] و في قصة شعيب أخبر الله عنه أنه قال لقومه: ﴿ وَبَا قَوْمٍ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ

تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿93﴾؛ فدعاهم لارتقاب ولهذا قرن التخويف بـ"سوف" الدالة على التسويف ، وليتوعدهم باقتراب العذاب. أما قصة صالح ولوط عليهما السلام فإن ما قبل الفاء يقتضى ما بعدها ، فالوعد بقرب العذاب منصوص عليه ، ففي قصة صالح: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ وفي قصة لوط ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ولكن الشهاب الخفاجي (ت1069هـ) قلل من الاندفاع وراء هذا التخريج حيث قال: « وما قيل في جوابه : أن ما ذكر محمول على العذاب الدنيوي ، وأنه ذكر الفاء في الموضعين لقرب عذاب قوم صالح ولوط للوعد المذكور من غير فصل بعيد فلا يخفى ما فيه. »¹⁰ والظاهر أن اعتراضه على هذا التخريج عائد إلى أنه يتابع البيضاوي (ت658هـ) في أن الفاء هنا للسببية بسبب تقدم ذكر الوعد في ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ [هود:65] وفي ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود:81] ولم يرد هذا في بقية القصص. وقد وافق الزمخشري البيضاوي في تعليقه. أما ابن الزبير فقد اعتمد سياق التناسب في توجيهه.

وقد أحسن الكرمانى (ت505هـ) الربط ما بين الفاء وسرعة العذاب والواو وتأخر العذاب ، فقال: «إِنَّ العذاب في قصة صالح وقصة لوط وقع عقيب الوعيد ، ففي قصة صالح قوله تعالى ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ [هود:65] وفي قصة لوط قوله تعالى: ﴿أليس الصبح بقريب﴾ [هود:81] فجاءت الفاء العاطفة في "فلما" للتعجيل والتعقيب. وأما في قصة هود وشعيب فقد تأخر وقت العذاب عن وقت الوعيد ، ففي قصة هود: ﴿وَيَسْتَخْلِفَ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَبْتًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود:57] وفي قصة شعيب ﴿سوف تعلمون﴾ [هود:93] فجاءت الواو العاطفة في قوله "ولما" لتناسب مع هذا التأخير.¹² والحق أن ذكر الوعيد يدل على قرب وقوع العذاب ؛ ففي قصة صالح قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:65] وفي قصة لوط قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ وهذا وعد قريب.

1-2- ثم **الفاء**: "ثم" أداة ربط رقيقة ، تسوس الألفاظ برفق وضمّ الشيء إلى شيءٍ بينهما مهلة. قال محمد الأمين الخضري في مطلع حديثه عن "ثم": «ومن مفاتن هذه اللغة الشاعرة ، ودقة موائمتها بين اللفظ والمعنى ، أنّها اختارت "الفاء" وهي حرف واحد لمعنى المسارعة ، و"ثم" وهي ثلاثة أحرف للمهلة ؛ لبواكب قصر الزمن في النطق بالفاء التوالي

السريع للأحداث ، يتناغم طول النطق بحرف المهلة مع التراخي في وقوع الأحداث.¹³ إن من خصائص ومعاني "ثم" ، التباين والتراخي في الزمان ويعبر النحويون عن ذلك بالمهلة ، وتكون للتباين في الصفات والأحكام وغير ذلك.¹⁴ ومن المواضع التي يطالعنا عن سر الاختلاف بين الحرفين "ثم" و"الفاء":

النص الأول: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ [الأنعام:11]

النص الثاني: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [النمل:69]
 موطن الشاهد: (ثم انظروا) و(فانظروا). الفرق: ثم و الفاء.

هو بيّن في النصين الكريمين ، فآية الأنعام جاء الأمر بها معطوفاً بـ (ثم) أما آية النمل فجاء معطوفاً بـ (الفاء) فما سرّ هذا الاختلاف؟ وماذا أفاد كل حرف في مكانه؟ هذا ما نرجو أن تكشف عنه هذه الموازنة. علماً بأن آيات كثيرة جاءت بهذا الأمر ، وكلها تصدّرت بـ (الفاء) إلا آية الأنعام فقد انفردت بـ (ثم).¹⁵

رأى الزمخشري: يرى أنّ الآيات الواردة بـ"الفاء" تدلّ على أنّه تعالى جعل التّظر سبباً عن السير في قوله "فانظروا" ، فكأنّه قيل: سيروا لأجل النظر ولاتسيروا سير الغافلين. أما قوله "سيروا في الأرض ثم انظروا" فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين وتنبّه على ذلك بـ"ثم" لتباعد ما بين الواجب و المباح.¹⁶

رأى الغرناطي: لقد جعل الغرناطي سبب مجيء "ثم" في هذا الموضع دون سواء مبنياً على سياق سورة الأنعام وما يطلبه هذا السياق من الفاصل الزمني الذي تفيده "ثم" حيث يقول: «أولاً أنّ مواضع الفاء تفيد إرادة التّظر والاعتبار عقب السير بما حلّ بمن سبق. ثانياً: أنّ سياق آية الأنعام مختلف عن غيرها من المواضع. فإنّ الله تعالى لمّا افتتح السورة بذكر خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور؛ فكأنه صار موضع تأمل وتفكّر وتدبّر ، أى: سيروا في الأرض فاعتبروا بخلقها وما سخّر لكم فيها ، فإذا عرفتم قدرة ربكم ، انظروا عاقبة من كذب ونبه فلم يعتبر ؛ فعطف هذا بـ"ثم" المقتضية مهلة الزمان حيث يراد ذلك.¹⁷

الموازنة و الترجيح:

إنّ البحث في دواعي السياق ومقتضياته كان له الأثر الأكبر في تحديد دلالة كلّ من "ثمّ" و"الفاء" في النصين الكريمين كما نراه في رأى الغرناطي. أما الزمخشري فقد وافقه في توجيه العطف بـ"ثمّ" فخرجه من ناحية الاختلاف في الرتبة بين الواجب والمباح، إذ إنّ "ثمّ" للترتيب الزمني واقتضاء المهلة والتراخي، وهذا التراخي لا يعنى المهلة الزمانية فقط بل عموم البعد والتباين.¹⁸ فجعل التعقيب دليلاً على إخلاص السير لأجل النظر، والتراخي دليلاً على الانشغال بأعمال أخرى مباحة كالتجارة وغيرها قبل النظر، و هو كلام يحتاج إلى تعليل اختيار "ثمّ" لهذا الموضوع وحده، لتدل على ما دلّت عليه من إباحة السير للتجارة وغيرها.

وهو الذي دفع أباحيان(ت745هـ) إلى اعتراضه بقوله: «ودعوى أنّ "الفاء" تكون سببية لأدليل عليها، وإنّما معناها التعقيب فقط... فلم كان السير هنا سير إباحة، وفي غيره سير واجب؟ فيحتاج ذلك إلى فرق بين هذا الموضوع وبين تلك المواضع.»¹⁹ وبالرغم من أنّنا لانوافق أباحيان على سلب معنى السببية من الفاء وهو الذي أثبتته جمهور النحاة، فإننا نرى اعتراضه على اختصاص "ثمّ" بهذا الموضوع دون تفسير سبب اختصاصها به وجيهاً. والأولى في نظري حمل "ثمّ" على حقيقتها والحثّ في دواعي السياق ومقتضياته عن السير في تراخي النظر في هذه الآية، وهو ما وقع عليه صاحب "ملاك التأويل" وكشف عنه في عبارة دقيقة. فقد جعل الزمخشري المعنى الوظيفي للحرف ودلالته، هما الأساس الذي ارتكز عليه عند تفسيره لدقائق الفروق بين حروف العطف وقد أفلح وأجاد ووافق الفخر الرازي(ت606هـ) الذي نقل كلامه ولم يزد عليه.²⁰

قد اتفق الغرناطي على أنّ "الفاء" تفيد الترتيب والتعقيب. أي أنّ المعطوف بها لاحق لما قبلها بغير مهلة، أو بمدة تقريبية وفيها اتصال واستمرار من دون انقطاع.²¹ وأنّ "ثمّ" تفيد الترتيب والتراخي، والتراخي لا يعنى المدة الزمنية فقط، بل عموم البعد والتباين. فالنظر في آثار الهالكين لا يتمّ إلا بعد انتهاء السير إلى أماكنهم. فالتراخي المفاد بـ"ثمّ" من حيث إنّ انتهاء السير بعيد عن ابتدائه.²² «فحيث دخلت "الفاء" فلاظهار السببية، وحيث دخلت "ثمّ" فللتنبية على أنّ النظر هو المقصود من السير وأنّ السير وسيلة إليه لا غير.»²³ فليس التراخي في النظر دليل الانشغال بغيره، وإنّما استدعاه الاكثار من السير و تفقد آثار الأمم الكثيرة البائدة في العصور المتباعدة، واستيفاء الإحصاء و الوقوف على المقدمات قبل الوصول إلى النتائج؛ لأنّ النظر المراد هنا نظر الفكر والتأمل، فلمّا كانت الدعوة إلى السير متسعة في هذا

الموضع زماناً ومكاناً بقدر اتساع الهالكين وآثارهم تراخت الدعوة إلى النظر حتى لا تكون نظرة عجلي حمقاء تحمل الكل على الجزء.

1-3- ثم والواو

من فروق التعبير القرآني في استعمال حرفي "الواو" و"ثم"، ما جاء في هاتين الآيتين الشريفين؛ إذ عطف فعل "جعل" على فعل "خلق" بالواو، في حين عطف هذا الفعل في موضع آخر مشابه لهذا الموضع بالحرف "ثم".

النص الأول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبُّهَا لِيُنزِلَ لَهَا فَوْجًا صَالِحًا لَتَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 189]

النص الثاني: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآئِي تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: 6]

موطن الشاهد: "وجعل" و"ثم جعل". الفرق: الواو و"ثم".

رأى الزمخشري: يرى أن العطف ب"ثم" في آية الزمر الدالة على التراخي الرتبي، يقول: «تشعيب هذا الخلق الفأنت للحرص من نفس آدم، وخلق حواء من قصيراه؛ إلا أن إحداها جعلها الله عادة مستمرة، والأخرى لم تجر بها العادة، و لم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل، فكانت أدخل في كونها آية، وأجلب لعجب السامع، فعطفها ب"ثم" على الآية الأولى، للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزيةً، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية؛ فهو من التراخي في الحال والمنزلة. لا من التراخي في الوجود.»²⁴ الدلالة على أن المعطوف أغرب وأعجب هي التي أشاعها حرف المهلة هنا، و هو من لطيف المعاني التي كثيراً ما ينفرد بها الزمخشري.

رأى الغرناطي: نظر إلى سياق آية الزمر وخرج بأنه لا يقصد من العطف ب"ثم" ترتيب زمانى؛ بل الغرض الذي وضعت لأجله تعظيم الحال فيما عطف وتحريك النفوس لمعرفة هذه النعمة العظيمة، فلما قصد الإنعام والامتنان وتعداد ذلك تعظيمها وتفخيها جاء العطف ب"ثم". يقول: «لها قصد من الامتنان والإنعام على هذا الجنس الأدمى ولتفاوت ما بين الآيتين

العجيبتين من خلق الصنف الإنساني من شخص واحد، وخلق زوجه منه، فجيء بـ"ثم" المنبها على معنى الاعتناء بذكر ما عطف بها والتأكيد لشأنه للمزية على المعطوف عليه القائمة مقام التراخي في الزمان...»²⁵

الموازنة والترجيح:

يبدو أنّ الزمخشري هو أساس هذه النظرة لمعنى "ثم" بعد ذلك تبعه جمع من المفسرين وكذلك ابن الزبير، ولهذا قال ابوحيان في تعليقه على كلام الزمخشري: «وقد تكرر الزمخشري ادعاء هذا المعنى لـ"ثم" ولأعلم في ذلك سلفاً.»²⁶ و أنّ الزمخشري خرج بنتيجة مهمة من خلال نظره إلى السياق إذ أشار إلى أنّه لا يقصد من العطف بـ"ثم" التراخي في الوجود و خرج إلى القول بأنّ الفعل في سورة الزمر عطف بـ"ثم" الدالة على التراخي الربّي وقصد بها هنا الترتيب في الأحوال والرتب لا في الزمان الوجودي، لأنّ الآيتين سيقتا للاستدلال على الوحدانية وإثبات قدرة الله سبحانه.

ولكن لانجد في تحليل الغرناطي مقنعاً، فمقام الامتنان والإنعام بالواو الصق، لأنّ الغرض منه هو تعديد النعم، لا إبراز التفاوت بينها، والتعديد أثير الواو من بين حروف العطف، أما إبراز التفاوت والترقي في خلق غريب إلى خلق آخر أشد غرابة؛ فذلك مقام الإدلال بالقدرة و الإبداع في الصنع توصلاً إلى الإقرار بعظمة الصانع الحكيم. وذلك ماتنفرد به "ثم" وهو الذي استوجه السياق في موقعها من سورة الزمر، رداً على من ادعوا لله شريكاً، ونسبوا إليه الولد، فساق الله تعالى لهم من عجائب الصنع، ودلائل القدرة ما يشهد بتفردّه وعدم احتياجه إلى ما نسب إليه.

فتأمل هذا السياق اللافع، لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآئِي تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ [الزمر: 1-6]

إنّ هذا السياق يبدو هذه العجائب من خلق الله الناطقة بعظيم الصنعة والقدرة يتناغم معها حرف المهلة بدلالته على التفاوت بين نوع من الخلق عظيم ، هو إيجاد البشر من نفس واحدة ، وبين خلق أعجب وأغرب لبعده عما جرت به العدة من تناسل الناس وتكاثرهم ، وذلك ما تفردت به آية الزمر واستحقت حرف المهلة ، بخلافها في آية الأعراف ، كان الغرض من العطف بيان نعمة التكاثر إبقاء على الحس ، وهياً لها بما أودعه في نفس الإنسان من ميل فطري بين النوعين ، ليكون التناسل إرادة إلهية قادرة ، يندفع إليها الإنسان بحكم غريزته وسكن الرجل إلى زوجه ، وذلك في معرض حكاية نشأة الخلق ومثل هذا المقام الذي يبرز التفاوت وشدة الائتلاف ، ينافيه "ثم" بدلالتها على التفاوت والبعده.

2- الإبدال بين حروف الجر

1-2- اللام وإلى

في الفروق التعبيرية بين حرفي "اللام" إذ تعدّى الفعل "أسلم" بها في البقرة وفي حين أنّ الفعل نفسه تعدّى بالحرف "إلى" في سورة لقمان.

النص الأول: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 112]

النص الثاني: ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان: 22]

موطن الشاهد: "أسلم لله" و "يسلم إلى الله". الفرق: "ل" و "إلى".

رأى الزمخشري: كشف عن الظرائف الدقيقة في الفرق بين تعديّة "أسلم" باللام و يالى ، فقال: «فإن قلت: ما له عدّى يالى ، وقد عدّى باللام في قوله بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ؟ قلت:معناه مع اللام: أنّه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله. أى خالصاً له. ومعناه مع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد: التوكل عليه والتفويض إليه.»²⁷

رأى ابن الزبير: لم يكشف الغرناطي عن سرّ هذا الاختلاف في كتابه "ملاك التأويل" ولم يتناوله.

إذ وجّه الزمخشريّ هذا الاختلاف بين الآيتين في تعدّي الفعل بحرف الجر بأنّ معنى الفعل "يسلم" مع اللام هو السلامة بمعنى الخلوّص ، ويختلف هذا المعنى عندما يتعدّى الفعل "يسلم" بالحرف "إلى" إذ المعنى أنّه سلّم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دُفِعَ إليه ، ويعنى ذلك التفويض إلى الله والتوكّل عليه.²⁸ وهذه عادة الزمخشري في الوقوف على دقائق الفروق بين الحروف ، غير أنّه لم يكشف لنا عن سرّ إثار كل حرف في موضعه ، وما يستوجهه من دواعي السياق وأغراضه.²⁹ ويؤكّد مذهب الزمخشريّ هذا ما وصل إليه علم الدلالة الحديث من أنّ الدلالة المعجميّة قابلة للتعدد والاحتمال ، وأنها تتجدد من خلال التراكيب المتنوعة.³⁰

وعلماء اللغة يقولون إن القياس "لله" باللام ، فالقياس أن يتعدى الفعل "يسلم" ب اللام وحين انتقل التعبير يتعدى الفعل ب إلى ، كانت له هذه الدلالة الجديدة³¹ وقال الرازي في تفسيره "من أسلم لله" أعلى درجة ممن أسلم إلى الله ؛ لأنّ "إلى" للغاية و"اللام" للاختصاص.³² وذكر فاضل السامرائي هذا التوجيه المعنوي فقال: «إنّ "أسلمت لله" أعلى من "أسلمت إلى الله" لأنّ جعل نفسه سالماً وخالصاً له لم يترك من نفسه شيئاً لغير الله. قال تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: 29] و أخبر سبحانه عن خليله ابراهيم أنّه قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 131] و قال تعالى: ﴿وَأَمْرٌ أَنْ أَسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الغافر: 66] و قالت ملكة سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [نمل: 44] فلما كان الفعل "أسلم له" ، أتم و أكمل في سورة البقرة كان الجواب أعلى و أتم ، فقال: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 112]³³

والزمخشري لم يكشف عن السرّ في اختيار كل حرف ، إنما بيّن معناه فحسب والذي أراه أنّ كل نص مرتبط بما قبله فأية البقرة مسبوقة بقوله تعالى: ﴿مَا تَسْخُحُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِحَیْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١٠٦ ﴿لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ١٠٧ ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ١٠٨ [البقرة: 106-108] في هذا النص والنص الذي ارتبط به "من اسلم وجهه لله" دلالة على أنّ الإسلام هنا فوق الإيمان ، وهو أن يكون مع الاعتراف باعتقاد بالقلب ، وفاء بالفعل

واستسلام لله في جميع ما قضى وقدر كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة:131) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:19] فكان الأجدر أن يتعدى الفعل "أسلم" بحرف اللام إذ فيه إشعار بالخضوع والانقياد والاستسلام لجميع أوامر الله.

وأما آية لقمان فقد سبقها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:20] فهنا تسخير آيات الله وإسباغ نعمة تقضي الانقياد إلى الله لا لغيره وتقويض أمرهم إلى الله وهذا يؤدي إلا بحرف الانتهاء "إلى" إذ تنتهي مصائر العباد إليه سبحانه وتعالى. والله أعلم.

2-2- اللام و الباء

هناك ثلاثة مواضع من متشابه في النظم الحكيم ، وفي سياق يكاد يكون واحداً ، ومع ذلك فقد تعدى اثنان منها باللام ، و واحد بالباء ، مما يتطلب البحث عن سر هذه المغايرة فيما هو أشبه بالموضع الواحد ، وهي:

النص الأول: ﴿وَأَلْفِي السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ﴾ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿الأعراف: 120-123﴾

النص الثاني: ﴿فَأَلْفِي السَّحْرَةَ سَجَدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَلْصِقَ بَنَاتِكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَلِتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه:71]

النص الثالث: ﴿فَأَلْفِي السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَلْصِقَ بَنَاتِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿الشعراء:49﴾
موطن الشاهد: "آمنتم به" و "آمنتم له". الفرق: الباء و اللام.

ف عند المقارنة بين هذه النصوص الكريمة يظهر الفرق واضحاً في اختيار حرف الجرّ، فمرة قال "به" كما في سورة الأعراف، وأخرى قال "له" كما في طه والشعراء. فالقصة واحدة وقد وقع فيها بعض التبدّل في الحروف.

رأى الزمخشري: وهو لم يكشف عن سر الفروق في هذه الآيات ولكن كشف عن سر اختلاف تعبير "الإيمان" بالباء واللام عند تفسيره للآية 61 من سورة "التوبة" لما قال: «فإن قلت لم عدّى الإيمان بالباء إلى الله تعالى و إلى المؤمنين باللام؟ قلت: لأنّه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به فعُدّي بالباء، وقصد السماع من المؤمنين، وأن يسلم لهم ما يقولونه، ويصدقهم لكونهم صادقين عنده، فعُدّي باللام، ألا ترى إلى قوله: «وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين» ما أنباه عن الباء»³⁵ قد كان الزمخشري أقرب المفسرين إلى لمح هذا الفرق وبهذا فالدلالة مع الباء غيرها مع اللام. وليس الأمر نيابة حرف مكان حرف، بل أداء حرف لوظيفة لا يؤديها غيره.

رأى الغرناطي: ذهب إلى أن الباء واللام لهما مع الفعل دالتان مختلفتان وأن الغرض محتاج لهما معاً، فجاء بهما في مواضع مختلفة لإحراز المعنيين؛ فهو يرى أنّ "الباء" و "اللام" يحتاج إليهما ليستقيم المعنى من حيث إنّ التصديق والانقياد معنيان محتاج إليهما، واللام تحرز الانقياد والإذعان. فبدأ بالباء المعطية معنى التصديق وهي أخصّ بالمقصود من اللام، فاقضى الترتيب تقديمها ثمّ أعقب السورتين بعد اللام، حتّى كان قد قيل لهم: أصدّقتموه منقادين له في دعائه إيّاكم إلى الإيمان بما جاء به من عند الله، فحصل المقصود على أكمل ما يمكن.³⁶

الموازنة والترحيح:

كثرت تعدية الإيمان بالباء في القرآن الحكيم، كما تعدّى باللام في أكثر من موضع، مما حدا بالبعض إلى القول بأن مدلول الفعل وما يؤديه التركيبان لا يختلف معهما على حد ما جاء في البحر المحيط: «وقيل: أمنت به وأمنت له واحد»³⁷ حين توجه إلى المعاجم لانجدها تفرق في الدلالة بين الإيمان متعدياً بالباء، وبينه متعدياً باللام، فالإيمان معناه التصديق وأمن بالشئ صدقه كما جاء في القاموس المحيط.³⁸ فإذا كان للإيمان هذه الدلالة اللغوية التي ذكرها الفيروزآبادي (ت816هـ) فلاغرو أن يتعدى بالباء دالاً على الثقة والقبول بشرع الله، وباللام دالاً على معنى الخضوع والانقياد، وليس في ذلك تضمين.

ف"آمن به" يدل على الإقرار به وتصديقه ، والعمل بما يقتضيه الصدق به ، وكأنه يجد الأمن في رحابه ، ويشعر بالأمان في صحبته. وافق البيضاوي الغرناطي في إفادة اللام هذا المعنى وقال: «اللام لتضمين الفعل معنى الاتباع.»³⁹ وبذلك يتضح الفرق بين تعدية الفعل بالباء وتعديته باللام بما ينبىء عن طبيعة الحرفين ووحيتها الخاص بهما. فالباء بما تدل عليه من الملابس والمصاحبة والإلصاق تخلع على فعل الإيمان وجود الأمن في خلال من يؤمن به ويلتس الحماية في صحبته ، والطمأنينة في ملابسته ، فيكون حريصاً على رضاه ، عاملاً بما يأمره به ، ولذلك فإن الإيمان لا يتعدى بالباء إلا في الإيمان بالله ورسله وكتبه ، لما أنّ الإيمان بالرسول هو امتداد للإيمان بالله ، وكذلك الإيمان بالكتب ، لأن الكتب كلام الله. أما اللام فإن الفعل يكتسب معها معنى الاستجابة للمصدق فيما دعا إليه ، والانحياز له في رأيه أو ما جاء به ، انطلاقاً من طبيعة اللام الدالة على اختصاصه بهذه المزية ، واستحقاقه للتصديق وهو ما لا يكون إلا من بشر لمثله ، ولا يقال: "آمن لله و لا لكتبه" كما يقال آمن بالله وبكتبه وعليه جاء قوله «وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين.»⁴⁰

ف نجد القرآن يسوق لكل قصة ما يناسبها من الكلمات والحروف حتى تصير قاطعة في التعبير ، ترشد إلى المقصود بأوجز طريق ، ذلك أن القرآن جُنب مواقف الزلل وأُيد بالتوفيق. ذلك أن آية الأعراف تشير إلى الإيمان بالله ، والضمير عائدٌ إلى رب العالمين ، رب موسى وهارون ، تقول آمنت بالله ، وليس لله ، وفي آيتي طه والشعراء يعود الضمير إلى موسى حيث أذعنوا له ولآيته وهو المؤمن له.⁴¹ ولا يبدو صحيحاً ما قيل من أن آمنت به و آمنت له بمعنى واحد.⁴²

أما الإسكافي سلك مسلكاً آخر ؛ فذهب إلى أن الضمير في الآية الأولى عائد إلى رب العالمين ، وفي الآيتين الأخريين عائد إلى موسى ، بدليل تقرير فرعون للسحرة وإنكاره منصب في الموضوعين الأخيرين على اتباعهم لموسى « انه لكبير.. لسحر» بخلاف الموضوع الأول ، فقد جاء ما يدل أن إيمانهم برب العالمين هو وسيلتهم للاستيلاء على المدينة وأهلها فكان أخرى بانكار هذا الإيمان بربهم.⁴³

3-2- إلى وعلى

النص الأول: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:136]

النص الثاني: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:84]

موطن الشاهد: "وما أنزل إلينا" و "وما أنزل علينا". الفرق: "إلينا" و "علينا"

فاستعمل حرف الجرّ "إلى" في آية البقرة وفي آل عمران استعمل حرف الجرّ "على". فهل ثمة فرق بين النصين والسياق واحد؟ فلاشك أنّ هناك فائدة توجب اختصاص حرفي الجرّ "إلى" و "على" كل في موضعه. يذكر النحاة أن الأصل في "إلى" أن يكون لانتهاه الغاية، و"على" للاستعلاء. جاء في "الكتاب": «أما "على" فاستعلاء الشيء، تقول: هذا على ظهر الجبل وهي على رأسه... وأما "إلى" فمنتهى لابتداء الغاية، تقول: من كذا إلى كذا».⁴⁴

رأى الزمخشري: يرى أنّ "على" موضوعة لكون الشيء فوق الشيء، ومجيئه من علو، و"إلى" للمنتهى ويكون من الجهات الست كلها. يقول: «فإن قلت: لم عدى أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاه؟ قلت: لوجود المعنيين جميعاً، لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالآخر. ومن قال: إنما قيل (علينا) لقوله: (قُلْ) و (إلينا) لقوله (قولوا) تفرقة بين الرسل والمؤمنين، لأن الرسول يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء، ويأتيهم على وجه الانتهاه، فقد تعسف. ألا ترى إلى قوله: (بما أنزل إليك)، (وأنزلنا إليك الكتاب) وإلى قوله: (آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا).⁴⁵

رأى الغرناطي: فالنزل كان على الأنبياء ثم انتهت الكتب إلى المؤمنين.⁴⁶ بناء على معنيين لـ"على وإلى" يقول الغرناطي ذاهباً مذهب كثير من العلماء: «إن سبب تخصيص آية البقرة بـ"إلى" هو أنها خطاب للمسلمين، والمسلمون لم ينزل عليهم القرآن وإنما انتهى إليهم بعد أن أنزل على النبي (ص) ولذا استعمل هنا "إلى" التي تفيد انتهاء الغاية. وأما آية عمران

فهي خطاب للنبي (ص) و من المعلوم أن القرآن أنزل عليه مباشرة ، و لهذا استعمل "على" التي تفيد الاستعلاء.⁴⁷

وقديين ابن الزبير في جوابه على هذا أن قوله: "قولوا" أمر للرسول (ص) ومن اتبعه على التشريك: «وإذا كان الأمر للجميع وجرى على حقيقته فإنما أنزل إليهم ، لأن المنزل عليه حقيقة هو الرسول لا المؤمنون ، وإذا قلنا أنزل على المؤمنين فمجاز ،... فلما قال في سورة البقرة: "قولوا" وأمر الجميع ناسبه إلينا كما ورد في قوله تعالى: ﴿وقولوا ءامنا بالذي أنزل إليكم﴾ [العنكبوت: 46] حين خوطب الجميع. ولما قال في آل عمران "قل" وكان الخطاب للرسول (ص) ناسبه علينا لأنه أنزل عليه ، فجاء كل على ما يجب».⁴⁸

وقد اعترض الزمخشري على هذا بقوله: «ومن قال: إنما قيل "علينا" لقوله "قل" و"إلينا" لقوله "قولوا" تفرقة بين الرسول و المؤمنين .. فقد تعسف ، ألا ترى إلى قوله : " بما أنزل إليك" .. وإلى قوله : " آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا" ..».⁴⁹ وقد نقل الرازي هذا الاعتراض.⁵⁰ وهو اعتراض وجيه وإن كان يمكن الرد عليه بأن هاتين الآيتين قد خرجتا عن الحقيقة إلى المجاز ، كما يفهم من قول ابن الزبير. أما التوجيه الذي خرج به الزمخشري فهو يرى أن الجمع بين حرف الاستعلاء وحرف انتهاء الغاية هو لأجل وجود المعنيين جميعاً ، لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل فجاء بكلا المعنيين.⁵¹

موازنة وترجيح:

إن المتتبع ما جاء في القرآن من مادة الإنزال ، يحصى منها سبعة وعشرين موضعاً عدّيت بـ "على" ومثلها عدّيت بـ "إلى" فيما خص الإنزال بمن نزل عليه الوحي من النبيين ولم يشاركهم فيه من أمروا بتبليغه إليهم ، وإن هذا التساوى في العدد بين ما عدى بـ "على" و ما عدى بـ "إلى" يستدعي الوقوف والتأمل ، فهو دليل على التوازن بين مواطن التشريف ومواطن التكليف ، أو قل تكافؤ الحقوق والواجبات وتبدو فيه روح التكريم والتشريف للأنبيا في كل المواطن التي تعدّت بـ "على" وروح الحث والاستنهاض وحده النبوة في الدعوة إلى التمسك بالمنزل والالتزام به فيما تعدى بـ "إلى".⁵²

تكاد تتلخص آراء المصنّفين بأنّ ما في البقرة عدّى بـ "إلى" لما كان الخطاب للأمة ؛ لأنّ القرآن إنّما أنزل إليهم ، وجاءت "على" في آل عمران لما كان الخطاب للرسول صلى الله

عليه وسلم ، لأنّ القرآن نزل عليه وحده. ولعلّ ذكر "إلى" عندما كان الخطاب للمؤمنين ليوجي باختصاص هذه الأمة بهذا الكتاب ، وأنّ فيه خيراً لهم ما بعده خير. ويلاحظ المتأمل آيات الكتاب أنّ أكثر ما جاء في جهة النبي صلى الله عليه وسلم بـ "على" وأكثر ما جاء في جهة الأمة بـ "إلى".⁵³ وفي هذا التحليل يظهر السمو والارتقاء في المنهج القرآني الفريد ، إنه باب واسع من أبواب الفهم في أسرار السياقات ، وتتجلى فيه حقيقة التكامل البياني بين الآيات المتشابهة.

فانظر الفارق بين التأمل المعنوي الذي ينتهي إليه البحث البياني للقرآن ، وبين التخلص النحوي الذي ينتهي – بسهولة- إلى إنابة حرف مكان حرف. فنجد لدى علماء الأسلوب القرآني الذي يُعنى كثيراً بالسياقات وتغيّر الدلالات على ضوء تغيّر الحروف ؛ فـ"إلى" موضوعة للانتهاء لا إلى جهة معيّنة بل إلى ستّ جهاتٍ (شمال ويمين وأمام وخلف وفوق وتحت) والخطاب في آية البقرة للأمة ، لقوله تعالى: "قولوا" فلم يصحّ إلا "إلى". أما "على" فحرف مختص بالفوقية ، وهو مختص بالأنبياء ؛ لأن الكتب منزلة عليهم ، لا شركة للأمة فيها. فكان الذي يليق بأية آل عمران "على" لأنّه مختص بالنبي (ص) دون أمته.⁵⁴ والحق أن كل التوجيهات مقبولة ويمكن أن يعلل بها الآيات والأسرار البلاغية لاتنزاحم.

3- الإبدال بين حروف النفي:

3-1- لن ولا

النص الأول: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95)﴾ [البقرة: 94-95]

النص الثاني: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6) وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7)﴾ [الجمعة: 6-7]

موطن الشاهد: "و لن يتمنوه" و "و لا يتمنونه". الفرق: "لن" و "لا".

إنّ المتخصّص هذه الآيات يدرك الاختلاف الظاهر بين الآيتين ، فاستعمل في سورة البقرة حرف النفي "لن" ، أمّا في الجمعة فقد اختار حرف النفي "لا" ، فما السرّ في هذا التغيّر والتبدّل في حروف النفي ؟

رأى الزمخشري: لم يجد فرقاً بين الموضوعين سوى التوكيد ، فقال: «ولا فرق بين «لا» و «لن» في أن كل واحدة منهما نفي للمستقبل ، إلا أن في «لن» تأكيداً وتشديداً ليس في «لا» فأتى مرةً بلفظ التأكيد وَلَنْ يَتِمَّنُوهُ وَمَرَّةً بغير لفظه وَلَا يَتِمَّنُوهُ».⁵⁵

رأى الغرناطي: يرى أنّ سبب ذلك هو «أولا آية البقرة جاءت متعلّقة بحكم أخرويّ يُستقبل وهو استئثار اليهود بالجنّة يوم القيامة فناسبه النفي بما وضعه من الحروف لنفي المستقبل. ثانياً: أنّ ما ورد في سورة الجمعة متعلق بحكم دنيويّ وذلك زعمهم إنهم أولياء الله من دون الناس ، وهو وصف حالّي لا استقبال فيه فناسبه النفي بـ"لا" والتي قد تتعاقب مع "ما" والتي هي لنفي الحال».⁵⁶

موازنة وترجيح:

قال ابن هشام: «"لن" حرف نصب ونفي واستقبال... ولا تنفيد "لن" توكيد النفي خلافاً للزمخشري في كشافه ، ولا تأييده خلافاً له في أنموذجه».⁵⁷ وفي الموازنة بين رأي الزمخشري والغرناطي نرى بأنّ الزمخشري لا يتبين سبب تخصيص كل آية بحرف النفي الذي وردت فيه ، ولم يفصح عن سر هذا التأكيد وكان كلامه مجرد إشارة فحسب ، بخلاف توجيه ابن الزبير. فهو لم يخرج عن ربه النحوي في هذا الموضوع فجعل استعمال "لن" في هذا الموقع للدلالة على المستقبل لأنّه متصل بالأخرة ؛ وهو أمر مستقبل وجعل في "لا" الدلالة إلى الحال لأنّه متصل بشأن دنيوي. وهذا الجواب أبرز المعنى في غاية ما يمكن الوقوف عليه كسر من أسرار النظم في الكتاب الكريم.

فالذي يبدو أنّ أقوال أغلب علماء المتشابه اللفظي موافقة لها أفاده الزمخشري في الفرق بين الآيتين. مما ينبغي الإشارة إليه في هذا الوضع أنّ الزمخشري قد خالف أقوال جمهور النحاة فيما ذكره من أنّ "لن" تدل على استغراق النفي في الزمن المستقبل بخلاف "لا" وقد ذكر مثل ذلك في "المفصل" فذكر أنّ "لن" لتأكيد ما تعطيه "لا" من نفي المستقبل.⁵⁸ وليس ذلك فحسب بل نسبت النحاة إلى الزمخشري القول بدلالة "لن" على التأييد في الأنموذج⁵⁹

وقدبنى على هذا القول مذهبه الاعتزالي عند قوله تعالى: ﴿قال لن ترانى﴾ [الأعراف:143] فقد ذكر أنّ النفي بـ "لن" هنا دليل على نفى الرؤية في الدنيا والآخرة.⁶⁰

وقد خالف السهيلي (ت581هـ) الزمخشري فذكر أنّ الألفاظ مشاكلة للمعاني فحرف "لا" لام بعدها الف يمتدّ بها الصوت ولا يقطعها تضييق النفس، فيمتد لفظها بامتداد معناها، و"لن" بعكس ذلك. ومن ذلك ما جاء في القرآن الكريم ﴿ولا ياتمنونه أبدا﴾ [الجمعة:7] بحرف "لا" في الموضع الذي اقترن فيه الشرط بالفعل فصار من صيغ العموم فانسحب على جميع الأزمنة قال تعالى: ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَوُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [جمعه:6] وقال في سورة البقرة "ولن يتمنونه" فقصر من سعة النفي وقرب لأنّ قبله ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ [بقرة:94] وليست إنّ هنا مع كان من صيغ العموم.⁶¹

إنّ الناظر في تحليل الزمخشري والغرناطي يرى حجة وسداداً في القول، وقد سلخوا مسلكاً سهلاً في تحليل هذين النصين وأتّم قدم رأياً منطقياً مقبولاً، فقد أعربوا في بحثهم عن معنى "لن" والتي هي أقوى وأكثر تأكيداً لنفي المستقبل من "لا".⁶² فناسب الحديث عن اليوم الآخر الذي هو آت لا ريب فيه. ومن خلال عرض هذه التوجيهات نلاحظ أنّ نظرة السهيلي كانت أدق وأعمق حين يرى أنّ "لا" أشمل وأوسع من "لن" نظراً لاحتباس الصوت مع "لن"، أما "لا" فحرف يمتدّ به الصوت، فأذن امتداد لفظها بامتداد معناها. حين أتأمل ما ذكره الزمخشري وابن الزبير والسهيلي أنري فيها عظمة الإعجاز وغاية البيان ودقة الأسرار، جمع اختلاف التوجيهات إلا أنّ في كل واحد منها ملامح بلاغية جيّدة وأسرار مفيدة ويمكن الأخذ بتلك التوجيهات جميعها لأن أسرار القرآن الكريم لاتنفد.

4- الإبدال بين حروف نصب المضارع

اللام وأن

النص الأول: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف:8]

النص الثانى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُنِمْ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:32]

موطن الشاهد: "ليطفؤا" و"أن يطفؤا". الفرق: الحرف الناصب "لام" و"أن".

رأى الزمخشري يقول: «أصله "يريدون أن يطفئوا" كما جاء في سورة براءة ، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيداً له ، لما فيها من معنى الإرادة في قولك: جئتك لإكرامك ، كما زيدت اللام في: لا أبأ لك ، تأكيداً لمعنى الإضافة في: لا أبأك...»⁶³

رأى الغرناطي: أما ابن الزبير فقد كان توجيهه مبنياً على الإيجاز والإطناب كعادته في كثير من توجيهاته. وقد أشار هنا إلى عدد الكلمات وزيادة عدد الحروف ، في آية براءة مقال طائفتين منهم اليهود والنصارى وفي الصف مقالة طائفة واحدة.⁶⁴

وفي اللام في مثل هذا التركيب مذهبان ؛ أحدهما: أنها زائدة ، كما قال الزمخشري ، ويرى ابن عطية: «أنّ هذه اللام في قوله "ليطفئوا" لام مؤكدة دخلت على المفعول لأنّ التقدير : "يريدون أن يطفئوا" وأكثر مانزماً هذه اللام المفعول إذا تقدّم تقول: "زيد ضربت ، ولرؤيتك أكثر ما نلزم المفعول إذا تقدم ليس بأكثر بل الأكثر : زيدا ضربت من: لزيد ضربت وأما قولها والثاني: وهو رأى جمهور النحاة ، أنها لام التعليل. وقد يكون المفعول هنا محذوفاً للاختصار واللام للتعليل ، والمعنى: يريدون ذلك ليطفئوا نور الله. وقد يكون المفعول محذوفاً غير منوي ، لأنه لم يتعلق به قصد الكلام والمعنى: إرادتهم للإطفاء. يعلق أبوحيان على كلام ابن عطية «وما ذكره ابن عطية من أنّ هذه اللام أكثر ما نلزم المفعول إذا تقدم ليس بأكثر بل الأكثر : زيدا ضربت من: لزيد ضربت و أما قولها (الزمخشري- ابن عطية) إنّ اللام للتأكيد وأنّ التقدير أن يطفئوا فالإطفاء مفعول "يريدون" فليس بمذهب سيبويه و الجمهور.»⁶⁶

التوجيهان السابقان لعلمين من علماء التفسير وقد راعى كلّ منهما الجانب النحوي في تفسيره وقد اتفقا على أنّ الأصل "يريدون أن يطفئوا" وأنّ اللام للتأكيد. أما ابن الزبير فقد كان توجيهه مبنياً على الإيجاز والإطناب كعادته في كثير من توجيهاته. وقد أشار هنا إلى عدد الكلمات وزيادة عدد الحروف في آية براءة مقال طائفتين منهم اليهود والنصارى وفي الصف مقالة طائفة واحدة⁶⁷ وأرى أنّ في توجيه ابن الزبير تكلفاً واضحاً. ومن المفسرين ابن عاشور الذي كان له توجيه جيّد راعي فيه الجانب المعنوي و اختلاف المقصودين يقول فيه: «وجيء بهذا التركيب هنا لشدة مما حكت اهل الكتاب وتطلبهم في دينهم ولم يجيء به في سورة الصف إذ قال "يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم و الله متمّ نوره ؛ لأنّ المنافقين كانوا يكيدون للمسلمين خفية وفي لين وتملق.»⁶⁸ وأما اعتراض ابي حيان على قول ابن عطية في

أنّ اللام أكثرها تلزم المفعول إذا تقدم فهو اعتراض في محلّه. فقد جاء في التطوّر النحوي أن دخول اللام على المفعول يظهر كثيراً في العبرية والآرامية وخصوصاً في الحبشية، ونادر جداً في العربية.⁶⁹

النتائج

- تمثّل حروف العطف كالواو والفاء وثم ، ثراء دلاليا في التراكيب حيث لا يقتصر أمرها على عطف الألفاظ وإنما لها دخل كبير في توجيه المعاني ، كما لا يقتصر أمرها على معانيها اللغوية العامة ، من كون الواو لمطلق الجمع ، والفاء للترتيب والتعقيب ، وثم للتراخي ، وإنما يتجدّد لها من المعاني بتجدّد التراكيب ، ولذلك اتّسعت دلالتها ، وتكاثرت معانيها من تركيب إلى تركيب.

- ظهر أنّ الزمخشري كمفسر بلاغي والغرناطي كعلم من أعلام المتشابه اللفظي قد أسهما في توجيه المتشابه اللفظي بعقل ثاقب ، وتفكير سليم حتى صاراً نوراً يُستضاء بها. قد كانت للزمخشري نظرات بلاغية فاق بها غيره ، فقد كان له أثر واضح فيمن جاء بعده من المفسرين وعلماء المتشابه اللفظي.

- إعتنى الزمخشري بحروف المعاني وأدرك ما للحرف من أثر فعّال في تغيير دلالة الفعل وتوجيهه الوجهة التي يشير إليها ؛ فهو يرى أن لكل فعل مع حرفه دلالة خاصة يحدده ذلك الحرف ويعين على فهمه.

- إن الزمخشري لا يتردد في مخالفة إجماع النحاة ، إذا كان ذلك يبيّن سراً بلاغياً ونكتة بيانية في النظم القرآني. فقد جعل المعنى الوظيفي للحرف ودلالته ، هما الأساس الذي ارتكز عليه عند تفسيره لدقائق الفروق بين حروف العطف وقد أفلح وأجاد فيه.

- أن هذين الكتابين — الكشاف وملاك التأويل - قد أسهما إلى حد كبير في خدمة معاني الحروف ، وتوضيح المراد منها ، وذلك تمهيداً لتوجيه الآيات المتشابهة ، وهذا أساس أصيل ، ومنهج قويم ؛ ذلك أن فهم معاني الحروف رافد هامّ من الروافد التي تغذي علم المتشابه اللفظي في القرآن الكريم ، و من العناصر الهامة في تقويمه.

- ظهرت في كتاب "الكشاف" شخصيّة الزمخشري النحويّة واللغويّة والبلاغية مما أنبأ عن سعة علمه وتبحره. وظهرت في كتاب "ملاك التأويل" شخصيّة الغرناطي البلاغية ، فقد كان يوجه الآيات المتشابهة توجيهاً بارعاً ممّا يدلّ على بعد نظره وسعة علمه.

- للواو و الفاء و ثَمّ ، دور في توجيه المعنى و تخصيصه ؛ فكلّ حرف له وظيفته تميّزه عن غيره ، بحيث لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يحلّ واحداً مكان الآخر بحيث يؤدي نفس المعنى ، فللغة أسرارها ، و للقرآن إعجازه ، و لكلّ حرف ميزاته و خصائصه .
- ظهرت في البحث دراسة متأنّية للحرف القرآني تناولت الحديث عن أثر صفات الحروف على جمال الكلمة و مناسبتها .
- لقد وقف الزمخشري عند مفردات النص القرآني وتأمّل وقع كلماته و كيفية ملاءمتها للسياق ، إذ إنّ هذه المفردات هي مفتاح النص القرآني و زمام ما فيه من دقيق المعاني و خفي الإشارات ، لقد برزت بوضوح صورة إحساس الزمخشري الدقيق لهذه حروف المعاني و عنايته بدراسة هذا النوع الهامّ من مفردات اللغة الشريفة ، تلك اللغة التي كان من أجمل ما يميزها دقة مواءمتها بين اللفظ و المعنى .
- التحليل اللغوي لاختلاف الحروف في المتشابه اللفظي حسبها جاء في كتاب ملاك التأويل يعتمد أساساً على علم المناسبة أو ما يُعرف في الدرس اللساني الحديث بمبدأ الاتساق و الانسجام .

الهوامش:

- 1- بنت الشاطي ، الإعجاز البياني للقرآن الكريم ، القاهرة ، 1987م: ص 139 .
- 2- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، 1957م: ج 1 ، ص 112 .
- 3- الأطرش ، دراسات في كتب المتشابه اللفظي ، عمان ، 1997م: ص 12 .
- 4- الخطيب الإسكافي ، درة التنزيل و غرة التأويل ، بيروت ، 1973م: ج 1: ص 55-56 .
- 5- راجع: الزمخشري ، الكشاف ، بيروت ، 1995م: ج 3 ، ص 486-487 .
- 6- . السكاكي ، مفتاح العلوم ، 1411هـ.ق: ص 107 .
- 7- الأسفرايني ، الأطول: 184هـ.ق: ج 1 ، ص 223 .
- 8- الزمخشري ، المصدر نفسه: ج 2 ص 425 .
- 9- الفرناطي ، ملاك التأويل ، بيروت ، 1985م: ج 2 ، ص 518-519 .
- 10- الخفاجي ، حاشية الشهاب على البيضاوي ، بيروت ، د.ت: ج 5 ، ص 132 .
- 11- راجع: البيضاوي ، أنوار التنزيل و أسرار التأويل ، بيروت ، 1408هـ.ق: ج 1. ص 468 .
- 12- الكرمانى ، البرهان في توجيه المتشابه القرآن ، دارالفضيلة ، د.ت: ص 145 .
- 13- راجع: الخضري ، من أسرار خروف العطف ، القاهرة ، د.ت: ص 153 .
- 14- راجع: الفرناطي ، المصدر نفسه: ج 1 ، ص 575 .
- 15- راجع: آل عمران: 137 ، النحل: 36 ، العنكبوت: 20 ، الروم: 42 .

- 16 - الزمخشري ، الكشاف ، مصر ، 1392هـ.ق: ج 2 ، ص 7.
- 17 - الغرناطي ، ملاك ، 1985م: تحقيق: محمود كامل ، بيروت دار النهضة العربية ، د.ط: ج 1 ص 293.
- 18 - السامرائي ، معاني النحو، عمان ، 1431هـ ، ج 3 ، ص 243.
- 19 - أبوحيان ، البحر المحيط ، بيروت ، 1411هـ: ، ج 4 ، ص 81.
- 20 - الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ، بيروت ، 1420هـ: ج 12 ، ص 488.
- 21 - راجع: السامرائي ، فاضل ، معاني النحو، عمان ، 1431هـ ، ج 3 ، ص 225.
- 22 - راجع: السامرائي ، المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 231 .
- 23 - الخضري ، ا من أسرار خروف العطف ، القاهرة ، د.ت: ص 280.
- 24 - الزمخشري ، الكشاف ، مصر ، 1392هـ ج 3 ص 388 .
- 25 - الغرناطي ، ملاك التأويل ، 1403هـ: ج 1 ، ص 331.
- 26 - ابوحيان ، البحر المحيط ، بيروت ، 1411هـ: ج 2 ، ص 307 .
- 27 - الزمخشري ، المصدر نفسه ، ج 3 ص 500)
- 28 - الزمخشري ، الكشاف ، بيروت ، د.ت: ج 3 ، ص 506.
- 29 - الخضري ، من اسرار حروف الجرفي ذكر الحكيم ، القاهرة ، 1409هـ: ص 225.
- 30 - راجع: تمام حسان ، اللغة العربية معناها و ميناها ، عالم الكتب ، 147هـ: ص 613 .
- 31 - الكرمانى ، أسرار التكرار فى القرآن ، تونس ، 1983م: ص 114 .
- 32 - الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ، بيروت ، 1420هـ: ج 9 ، ص 125.
- 33 - السامرائي ، على طريق التفسير البياني ، الإمارات ، 1425هـ: ج 2 ، ص 342.
- 34 - الراغب الأصفهاني ، مفردات أفاظ القرآن الكريم ، دمشق: 1317هـ: 423.
- 35 - الزمخشري ، المصدر نفسه ، ج 2: ص 199.
- 36 - (الغرناطي ، المصدر نفسه ، تحقيق: محمود كامل ، بيروت ، د.ت: ج 1 ، ص 445-446.
- 37 - ابوحيان ، المصدر نفسه ، ج 5: 365.
- 38 - راجع: الفيروزابادى ، القاموس المحيط ، د.ت: 182/1: ابن المنظور ، لسان العرب ، القاهرة ، د.ت: ج 1: 141.
- 39 - البيضاوى ، المصدر نفسه ، القاهرة ، 1388هـ: ج 2 ، ص 52 .
- 40 - راجع: يوسف: 17 ، المومنون: 47 ، الشعراء: 111 .
- 41 - الكرمانى ، المصدر نفسه ، ص 90.
- 42 - أسرار التكرار ، ص 90 پاورقى اسرار السلوبي همان
- 43 - انظر درة التنزيل ، 176 و 177 پاورقى اسزاز حروف ص 213
- 44 - راجع: سبويه ، الكتاب ، بغداد ، د.ت: ج 2: ص 310 ، المبرد ، المقتضب ، القاهرة ، 1386هـ: ج 4: ص 139 ، المرادى ، الجنى الدانى ، الموصل ، 1396هـ: ص 373 و 444
- 45 - الزمخشري ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 381 و 380.
- 48 - الغرناطي ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 95.

- 47- راجع: الفرناطي ، المصدر نفسه ، الخطيب الإسكافي ، درة التنزيل و غرة التأويل ، بيروت ، 1393هـ: ص 35 ، الكرمانى ، البرهان ، دار الفضيلة ، د.ت: 79 .
- 48- الفرناطي ، المصدر نفسه ، ج 1: ، ص 239 .
- 49- الزمخشري ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 199 .
- 50- الفخر الرازي ، المصدر نفسه ، ج 8 ، ص 124 .
- 51- الزمخشري ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 99 .
- 52- راجع: الخضري ، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، ص 107-109 .
- 53- راجع: السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، دمشق ، 1996م: ج 2 ، ص 998 ؛ و ابن عقيلة المهكي ، الزيادة و الإحسان في علوم القرآن ، الشارقة ، 2006م: ج 6 ، ص 346 .
- 54- الخطيب الإسكافي ، المصدر نفسه ، ص 34 ، الكرمانى ، أسرار التكرار في القرآن ، ص 36 .
- 55- الزمخشري ، المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 531 .
- 56- راجع: الفرناطي ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 84 .
- 57- ابن هشام ، مغني اللبيب ، بيروت ، 1411هـ: ج 1 ، ص 313 .
- 58- الزمخشري ، المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 145 و 146 .
- 59- ابن هشام ، المصدر نفسه ، دمشق ، 1985م ، ص 837 ؛ الزركشى ، البرهان في علوم القرآن ، 1376هـ: ج 4 ، ص 387 .
- 60- الزمخشري ، المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 146 .
- 61- السهيلي ، نتائج الفكر ، بيروت ، 1412هـ ، ص 100 و 101 .
- 62- راجع: السامرائي ، معاني النحو ، ج 4 ، ص 567 باورقي صالح ص 124 .
- 63- الزمخشري ، المصدر نفسه ، ج 4 ص 525 و ج 2 ص 265 .
- 64- الفرناطي ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 589 .
- 65- راجع: راشد جراري ، متشابهات آى القرآن الكريم ، دراسة نحوية دلالية ، دارالرضا ، 1425هـ: ص 228 .
- 66- أبوحيان ، المصدر نفسه ، ج 8 ، ص 365 .
- 67- الفرناطي ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 589 .
- 68- ابن عاشور ، المصدر نفسه ، ج 10 ، ص 172 .
- 69- برجشتراسر ، و رمضان عبدالكواب ، التطور النحوي في اللغة العربية ، القاهرة ، ص 48 .

المصادر:

القرآن الكريم

1. الألوسى ، محمود بن عبدالله (1415م) ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني ، تحقيق: على عبدالبارى عطية ، ط 1 ، بيروت ، دارالكتب العلمية .
2. الأسفرايينى ، عصام الدين (1284هـ) ، الأطول ، المطبعة العامرة .

3. الأطرش ، عطية صدقي (1997م)، **دراسات في كتب المتشابه اللفظي** ، عمان ، الجامعة الأردنية ، رسالة ماجستير
4. ابن منظور ، (د.ت) **لسان العرب** ، د.ط ، القاهرة ، دارالمعارف .
5. ابن الزبير الغرناطي ، (1402هـ) ، **ملاك التأويل** ، تحقيق: سعيد فلاح ، ط2 ، دارالغرب الإسلامي .
..... (د.ت) ، تحقيق: محمود كامل ، د.ط ، بيروت ، دارالنضرة .
6. ابن عاشور ، محمد بن محد الطاهر (1984م) ، **التحرير والتنوير** ، د.ط ، تونس ، الدارالتونسية للنشر .
7. ابن عقيلة المكي ، محمد بن أحمد (2006م) ، **الزيادة والإحسان في علوم القرآن** ، ط1 ، الشارقة ، جامعة الشارقة ، مركز البحوث و الدراسات .
8. ابن هشام . (1441هـ) ، **مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب** ، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد ، بيروت ، المكتبة العصرية .
..... (1985م) ، تحقيق: مازن مبارك و محمد علي حمدالله ، ط6 ، دمشق ، دارالفكر .
9. برجستراسر و رمضان عبدالكواب (د.ت) ، **التطور النحوي في اللغة العربية** ، ط2 ، القاهرة ، مكتبة الخانجي .
10. بنت الشاطي ، عائشة عبدالرحمن (1987م) ، **الإعجاز البياني للقرآن الكريم** ، ط2 ، القاهرة ، دارالمعارف .
11. البيضاوي ، (1408هـ.ق) ، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** ، ط1 ، بيروت ، دارالكتب العلمية .
12. (1388هـ) ، ط2 ، القاهرة ، مطبعة الحلبي
13. تمام حسان ، عمر (1427هـ) ، **اللغة العربية معناها ومبناها** ، ط5 ، عالم الكتب .
14. جراري ، راشد أحمد (145هـ) ، **متشابهات أي القرآن الكريم** ، دراسة نحوية دلالية ، د.ط ، دار الرضا .
15. الخطيب الإسكافي ، محمد بن عبدالله (1973م) ، **درة التنزيل وغرة التأويل** ، د.ط ، بيروت ، دارالآفاق .
..... (1393هـ) ، **درة التنزيل وغرة التأويل** ، د.ط ، بيروت ، نشر الآفاق الجديدة ، نشر عادل النويهيض .
16. الخضري ، محمد الأمين (1409هـ) ، **من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم** ، ط1 ، القاهرة ، مكتبة وهبة .
17. الخفاجي ، شهاب الدين (د.ت) ، **حاشية الشهاب على البيضاوي** ، د.ط ، بيروت ، دار صادر .
18. الراغب الأصفهاني ، (1377هـ) ، **مفردات ألفاظ قرآن الكريم** ، تحقيق: صفوان عدنان ، ط1 ، دمشق ، دارالقلم .
19. الرازي ، فخرالدين محمد بن عمر (1420هـ) ، **مفاتيح الغيب** ، ط3 ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي .
20. الزركشي ، محمد بن عبدالله (1376هـ) ، **البرهان في علوم القرآن** ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط1 ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي وشركائه .
21. الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمر (1995م) ، ، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل في وجوه التأويل** ، ترتيب و ضبط: محمد عبدالسلام شاهين ، ط1 ، بيروت ، دارالكتب العلمية .
..... (139هـ) ط أخيرة ، مصر ، مكتبة مصطفى الحلبي .
- (د.ت) تحقيق: عبدالرزاق المهدي ، د. ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي .
22. السامرائي ، فاضل صالح (1431هـ.ق) ، **معاني النحو** ، ط1 ، عمان ، دارالسلطين .

23.(1425هـ)، **على طريق التعبير البياني**، الإمارات، جامعة الشارقة، ج 2.
24. السكاكي، أبويعقوب (1411هـ.ق)، **مفتاح العلوم**، تحقيق: مصطفى الباي الحلبي، ط 2.
25. السهيلي، أبو القاسم (1412هـ)، **نتائج الفكر في النحو**، د.ط، بيروت، دارالكتب العلمية.
26. سيوييه، عمرو بين عثمان (د.ت)، **الكتاب**، د.ط، بغداد، نسخة مصورة على طبعة بولاق، مكتبة المثنى.
27. السيوطي، عبدالرحمن أبي بكر (1996م)، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: مصطفى البغا، ط 3، دمشق، دار ابن كثير.
28. الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، تحقيق: عيسى الباي الحلبي، ط 2.
29. الكرمانى، محمود بن حمزة (د.ت)، **أسرار التكرار في القرآن**، ط 1، تونس، داربوسلامة.
-(د.ت)، **البرهان في توجيه المتشابه القرآن**، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، دارالفضيلة.
30. المبرد، محمد بن يزيد (1386هـ)، **المقتضب**، تحقيق: محمد عبدالخالق عضية، القاهرة، لجنة إحياء التراث العربى.
31. المبرادى، حسن بن قاسم (1396هـ)، **الجنى الدانى في حروف المعانى**، تحقيق: طه محسن، الموصل، جامعة الموصل، دارالكتب للطباعة و النشر.
32. هشام حريز، سامى محمد (2006م)، **نظرات من العجاز البيانى في القرآن الكريم نظريا و تطبيقا**، ط 1، عمان، دارالشروق.